الفصل الثامن

أُغنيات الوداع... ...

آه من نومى ومن صحوى

ومن ساعة تعلن أو تخفى أسايا

آه منها.. أنا لم أدرك مداها

آه منى.. هى لم تدرك مدايا

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى.. وأنا منها شظايا؟

كامل الشناوى

obeikan.com

obeikan.com

بالرغم من أحزان كامل الشناوى الدفينة إلا أنه كان عاشقا للحياة يحب أن ينهل منها كل قطرة فيها، ولذلك عشق الليل والحب والجمال..

وقد فسر سر كلماته الشعرية الحزينة فقال: «لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة ويسمون ذلك تفاؤلا».

«لست متشائما، ولست مجنونا، ولكنى أحاول أن أكون صادقا مع ما أشعر به، وما أفكر فيه».

وحتى ينسى أحزانه الدفينة، كان يحاول أن ينغمس فى الحياة الاجتماعية، فيسهر الليل كله فى مجالس السمر والفكاهة، وكان لا يطيق أن يظل وحيدا يوما واحدا وقد اعترف بذلك فقال:

«أمضيت يومى كله وحدى.. أردت أن أجرب هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا ناس؟ قرأت كتابا، وسمعت أغانى، وموسيقى ولكننى لم أتصل بأحد، ولم يتصل بى أحد خيل لى وأنا هكذا وحدى، أنى مريض أتولى بنفسى، زيارة نفسى».

«ولم أشأ أن أثقل على المريض بالزيارة الطويلة فغادرت البيت واختلطت بالناس».

وفى سنواته الأخيرة بدأ يشعر بوطأة السنين وتبدل الظروف والأحوال فكتب يقول:

«أصبحت ساعتى مثلى.. أصابتها الشيخوخة فقدت توازنها، تريد أن تسير فتقف، تحولت دقاتها المنتظمة إلى سعال متقطع. حاولت التخلص منها، فماذا أصنع بها[1]؟

«.... آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى.. لأنى أصبحت مثل ساعتى».

ويلقى لنا أحد تلاميذ[2] بعض الأضواء على ملامح شخصية كامل الشناوى ونفسيته، فيقول:

«كان يعشق فى الليل سحره وغموضه، ويكره فيه غدره وظلمته ولذلك عاش دائما تحت الأضواء..».

«سأله الدكتور الكاتب عندما كان نزيلا فى مستشفاه: «أخبرتنى الممرضات أنك تسهر كل الليل ولا تستأثر منه بساعات للنوم والراحة»؟

قال: لأن معظم الموت يأتى فى الليل!

«لم يكن هذا حالة مع الليل فى شبابه أو رجولته، كانت الصحة موفورة والحياة هادئة الإيقاع، والشهرة مقبلة عليه، والدنيا تتألق حوله، والمال ينساب بين يديه، والأمل فى الحب والزواج متجددا ومحتملا، وصحبة الاصدقاء كل يوم وكل ساعة وحتى الصباح ميسورة ومعظمهم عزاب بلا زوجات ولا أولاد».

لأن دوام الحال من المحال ولأنه جاوز الخمسين والزمن يتغير من حوله إذن فلابد مما ليس منه بد وقرر أن يغتال الليل كل ليلة من لياليه وأن يحتمى من الموت وسط الناس بالصخب والمرح وأن يعيش للناس وبالناس..

(١) كامل الشناوى، ساعات.

(٢) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان.

كتب يقول: «عمرى مثل ديونى.. أدفعه على أقساط، فى كل سنة أسدد اثنى عشر قسطا!».

وهكذا كان إحساسه الحاد بالزمن ولذلك لم يقتن ساعة فى بيته حتى «المنبه» فى غرفة نومه كان يأذن له بالدوران ليذكره فقط بموعد هام أو مكالمة عاطفية، وكأنه يعمل لحسابه وليس لحساب الزمن، وكان يصف عقارب الساعة بأنها طرفا مقصلة، فى كل حركة تقصف أرواحا!

وعندما ألمت به الوعكة الصحية فى نوفمبر عام ١٩٦٤ أدرك أنها النهاية، عندئذ رأى الموت رأى العين، وأدرك أن شمعة حياته آخذة فى الذبول، وأن ما بقى من العمر ليس أكثر من ترقب وانتظار لحظة الانطفاء وعتمة القبر.

ومن هنا كانت سخريته من الحياة، وسياقه اللاهث مع الزمن، أكون أو لا أكون ذلك كان سؤاله الملح مع نفسه، وقرر أن يظل حضوره الانسانى غامرا، وأن يعيش ما بقى من أيامه وسط الناس أن يسعدهم ويسعد بهم!

كان يزحم يومه بالحركة المتنوعة وبالنشاط الملون، لم يكن يرضى ليومه أن يمضى شبيها بأمسه.

كان يدرك أن أيامه معدودة، وأن أقرانه يتساقطون تباعا كأوراق الخريف، وبقدر معايشتى واقترابى منه خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، لا أتصوره متشائما كما يعتقد البعض، كان متشائما فقط حينما يخلو لنفسه حتى شعره المتشائم لم يكن يكتبه إلا وهو منفرد مع نفسه أو مختل بها منصرف إليها، وعندئذ تدور برأسه دوائر الشك والتمزق، ولكن كامل وسط الناس كان دوما فرحا مرحا بالحياة يطرب لها وينتشى لسماع نفسه، ويزداد طربا كلما طرب الناس لحديثه وشعره وظرفه ومقالبه، وكان يتساءل فى شعره:

صـــحـــوة الموت مـــا أرى أم أرى غـــفـــوة الحـــيـــاة؟

ولم يشعر كامل الشناوى فى حياته بأنه يضحك للحياة كان دائما يضحك عليها أو يسخر منها وهو الذى قال: «فمادام الموت يتعقب حياتنا ومادمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة».

ومن هنا كان إحساسه العميق بالموت وحيرته أمام هذا السر الغامض وراء هوايته الجامحة فى مداعبة المجانين والغائبين عن الوعى بحقائق الحياة وإثارته للشد والجذب بينهم وبين العقلاء.

ولم يتغير كامل الشناوى كثيرا عبر مراحل حياته، كان وهو فى الخمسين طفل المشاعر وإن كبرت ثقافته وأفكاره وتجاربه

والذين عاشوا مع كامل الشناوى طفولته وكهولته يؤكدون ذلك كان إذا ضحك وهو صغير فكأنه يبكى وتدمع عيناه وكان وهو كبير إذا غمره الحزن والألم فاض بسخرية ضاحكة.

وقد عرف كامل الشناوى الموت صغيرا، ولم يجد تفسيرا ولا سببا له عندما توفيت شقيقته الصغرى أمامه، ولم تكن قد أكملت دورتها فى الحياة بعد...

ثم أدرك بعد ذلك قسوة الموت وغدره عندما كان يقف على شاطئ البحر فى بورسعيد، يرى ابن عمه الشاب يلاطم الأمواج فى نشاط وقوة ثم وهو يرفع يديه إلى الله والناس يطلب الحياة والنجاة... و... غاص فى أعماق البحر والمجهول، ثم أخرجوه ميتا أمام عينيه جثة هامدة، وأمسك بيده فوجدها لا نبض فيها ولا روح.

ومن هنا كان فزعه من غدر الموت، وعندما سافر لأول مرة بالطائرة إلى الكويت وإلى سوريا مع الرئيس جمال عبد الناصر كتب يرثى نفسه

ويتخيل حال أصدقائه بعد وفاته،حتى مانشيتات الصحف تخيلها وكانت مطابقة لما حدث بعد غيابه عن عالم الأحياء، وحتى المكان الذى توقع أن تبدأ منه جنازته ويتلقى عزاؤه بجوار مسجد عمر مكرم كان يمر عليه كل يوم فى ذهابه إلى العمل وإيابه إلى بيته، وكان يجزع منه ويرتجف:

«ما أشد نفورى من كل شئ عار إنسان، فضاء، مكان. الانسان العارى من الثياب، أو الذكاء، أو الأخلاق، أو الثقافة يفزعنى!».

الفضاء العارى من الهواء يخنقنى. المكان العارى من الأبنية أو الزرع، أو الماء، أو الحركة يخنقنى !.كل ما هو عار أتهيبه، إلا هذه القطعة من الأرض التى تعترض طريق بيتى أنها لا تكتسى بالزرع، أو الماء، أو العمارات، أو الحركة، ولكن تكتسى بسرادق واسع لتستقبل به الناس وتودعهم وأى ناس هؤلاء الذين يلتقون بها؟ إنهم أصدقاء الموتى يجيئون ليشيعوا جنازة، أو يتبادلوا العزاء وتلمح على وجوههم الوجوم والكآبة والوفاء! كلمات واحدة يرددونها ويسمعونها والأرض المسكينة لا تكاد تخلع سرادقها وتعرى، حتى تعود وترتدى نفس السرادق من جديد!

والذين يترددون عليها اليوم ليعزوا فقيدا، سيصبح كل منهم ذات يوم فقيدا يعزى فيه الناس... هنا فى هذه الأرض التى تتعرى يوما وتكتسى بضعة أيام؟؟

كلما استقبلتنى هذه الأرض وهى تتدثر بقطع القماش المرفوعة كالحائط انقبضت نفسى!.

لا أدرى هل أشعر بالانقباض لأنى أعزى فى ميت، أو لأنى أشعر بأن المقعد الذى أجلس فيه لأعزى اليوم سيجلس فيه غيرى غدا ليعزى أهلى فى موتى!.

ولكن كيف نفكر فى الموت ومازلنا أحياء وهل نستطيع أن نفكر فيه بعد ما نصبح موتى!

إن العقلاء هم الذين لا يفكرون فى الموت وعبثا أحاول أن أكون واحدا من العقلاء، كان يخاف الموت فى كل شئ ينبئ بالخطر يخشى الموت عندما يمشى فى الليل تحت أسلاك الترام والترولى باص، يخشى الموت فى العربة اللاهثة، والمبنى القديم والأسانسير المتعب.

وزملاء كامل الشناوى فى جريدة الأهرام يتذكرون خوفه الشديد إبان الحرب العالمية الثانية عند سماعه صفارة الإنذار، فكان يهرب إلى دورة المياه ويغلقه خلفه ويظل فى مخبئه فترة كافية حتى بعد إطلاق صفارة الإنذار، فربما كانت هناك طائرة ألمانية مختبئة فى السماء ولم ترصدها الكشافات وكان يؤكد لزملائه أن أول ما تستهدفه طائرات المحور بعد المواقع العسكرية دور الصحف التى كانت بوقا للحلفاء فى هذه الحرب.

وكان كامل الشناوى يخطئ كثيرا ولكنه كان قليل الذنوب وكان رأيه أن البشر كالأنبياء والفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من الخطأ، أما البشر فمعصومون من الصواب.

وعندما سأله صديقه جليل البندارى: ما هو الخطأ الذى يتردى فيه الانسان وما هو الذنب؟

قال: إذا أهملت صحتك فهذا خطأ وإذا سرقت أدوية غيرك فهذا ذنب وأنا فى حياتى لم أسرق الأدوية، ولكنى أهملت دائما صحتى.

وسأله: من هم سكان الآخرة؟

قال: «إن الدنيا تتسع لمن يغمضون قلوبهم وعيونهم ويغلقون آذانهم وعقولهم ولكن الآخرة لن تتسع لهؤلاء أبدا، فما جدوى أن يبعث فى العالم

الآخر، من لم يحسوا ما فى العالم الأول من عظمة وجمال».

وسأل كامل الشناوى: عندما تهدى كتابا لك إلى صديق يقول لك أنه لم يقرأه فماذا تفعل؟ وأجابه جليل البندارى: أغضب...

فقال كامل الشناوى: فما بالك بهذا الكتاب الفخم الذى ألفه الله وسماه الدنيا؟ وهل يسر الله ألا يقرأه أحد بحجة أنه ناسك أو زاهد أو راهب؟ أن من يظنون ذلك يعانون أمية فى الإيمان.

ثم قال: ومن واجب الناس أن يقرءوا الحياة ويمارسوها بكل ما فيها.. عليهم أن يواجهوا فتنتها ومن استطاع مقاومة الفتنة فهو الذى يستحق أن يبعثه الله.

وهكذا كان كامل الشناوى يرى الحياة والآخرة ويفهم معنى الخير والشر، لقد تجاهل حقائق الحياة التى لا ترضيه من خلال نظرته الرومانسية واعتبرها غير قائمة ولكن إلى أى مدى يملك الانسان المقيد بحدود الواقع أن يتجاهله؟!

قد يستطيع أمام الدمامة أن يغمض عينيه، وأمام الأكاذيب أن يسد أذنيه وأمام الصراع أن يدير له ظهره وأمام الإساءات أن يتناساها ولكن ماذا يفعل أمام الحقائق الأخرى القاهرة التى تقتحم كيان الانسان وتفرض نفسها عليه وفى داخله.

ماذا يفعل كامل الشناوى أمام الموت وهو القائل بأن ضوء الحقيقة كضوء الشمس يخترق الحجب والظلمات، ليس صدفة أن تكون الحرية أكثر ما قدسه فى حياته ودافع عنه بكل قواه.

كان الموت هو الحقيقة الوحيدة الذى لا يستطيع أن يلغيها بتجاهلها، وكانت الحرية هى الوهم الوحيد الذى لا يستطيع أن يعيشه بالتمنى: لأنه

لا حرية لانسان يحب الناس إلى حد الالتزام بحمل نصف أعبائهم وحده..

وبين هذين القطبين ـ الموت والحرية ـ كانت الأرض التى اصطدم فيها خيال كامل الشناوى بحقائق الوجود.

وإذا كانت المواجهة صعبة ونتائجها وخيمة، فأولى به أن يهرب، وهرب كامل الشناوى .. أو كان يحاول أن يهرب دائما من مواجهة الحقيقة إزاء قضية الموت والوجود وكان السهر ودوام السهر هروبا من الحقيقة بوعى وبلا وعى...

كان يأوى إلى فراشه قبيل الفجر أو قبيل الشروق، وكان يسخر قائلا: آخاف أن ترانى أول عصفورة تستيقظ فى جاردن سيتى فى عودتى إلى المنزل هذه الساعة وتبلغ عنى البوليس.

وكان أهل منزله وهما سيد وفاروق ابنا شقيقه أبو الفضل وخادمتاه سعديه وباتعة يستيقظون مبكرا حال عودته ليسمعوا منه عبارة «صباح الخير» وعندئذ ينام وسط الجلبة وحركة الشارع...

لم يكن يقوى على مشاركة حياته الليلية كثير من الأصدقاء وكانت علاقاتهم به ليلا تتحول إلى إدمان بعد أول سهرة معه وكيف لا ومجال كامل الشناوى أنس وبهجة وشعر ومرح، ولم لا ونجوم الفن والأدب والصحافة يتحلقون حوله، وهو الكريم الحاتمى الذى يصر على دفع الحساب كل ليلة من مال فكره وفنه ونبض قلبه.

وكان يتعجب فى تأملاته الساخرة من الانسان الذى وهبه الله عقلا وقلبا يحب ما شاء له أن يحب فى كل يوم وفى كل لحظة فإذا به يكفر بنعمة ربه فيغيب عقله ويحبس قلبه طواعية فى أسر حب واحد بدعوى الاخلاص وما هو بالإخلاص وإنما حب التملك والأنانية!.

نعم.. كان أشد ما يؤلم كامل الشناوى أن ينفض من حوله الأصدقاء والتلاميذ إلى الزواج والحياة الروتينية التى تسمى بالاستقرار وهو الذى عاش حياته يعربد فيها حركة ومرحا وحبا وتألقا بلا زوجة ولا اولاد..

فقد كان يخشى يوما أن يصبح وحيدا بلا أصدقاء يسهرون معه ويحتمى وسطهم من هجمة الموت ولذلك كان فى كل يوم يستقبل فى حياته أصدقاء جددا بينما يخرج آخرون وكان يقول:

«كلما ضاع منى صديق، أبكى عليه كما لو كان قد فارق الحياة وأدفنه فى قلبى.. وضعت اليوم يدى على صدرى فخيل إلى أنه مقبرة تضم مئات من الأضرحة»!

كان يعجب من أمر الحياة والناس وتقلبات الزمن فكان يتعجب لأن الرجال خلعوا الطرابيش وأنهم أصبحوا لا يجدون حرجا فى إرسال شعورهم وتلوين ملابسهم وكل ذلك كان فى فترة ما أشبه بالمقدسات وكان الطربوش رمزا للكرامة وكانت ألوان ملابس الرجال فاتحة أو غامقة وكانت شعورهم تتدرج من الزيرو إلى نمرة ثلاثة(١).

خلع كامل الشناوى الطربوش الأنيق كما خلع من قبل العمامة الأنيقة و«جبة» أولاد العلماء، وكانت ملابسه جميلة وغالية ومتقنة، وكان يتعامل فى آخريات أيامه مع ترزى أخرس يدفع له خمسين جنيها فى البدلة الواحدة، وكان أكبر أجر فى تلك الأيام لا يتجاوز العشرين بحال، وكان يصر على موضة زمان وألوان زمان وكان يشترى حمالات البنطلونات من الخارج ويرفض استعمال الحزام وأن يستعمل الحمالات المطاطة للجوارب وعندما يأكل فى منزله كان لا يستخدم الشوكة والسكين ويجد متعة كبيرة فى تناول الطعام بأصابعه مباشرة ودون تؤدة وتأنق لا كما يأكل أمام

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان ـ ص ١٥٥.

الناس خارج بيته!

وكلما اهتزت صحته تحت وطأة المرض والسهر والحب والحزن زاد إسرافه وإتلافه للمال فى كل ما يأتى إليه بالمرض ويطيل السهر ويصل ما انقطع وصالا وقربا وحبا ومرحا.

وبدأت كتاباته تعكس قلقه وهمومه:

«كلما نظرت إلى أمسى ويومى أصابنى الفزع!! فأنا حتى هذه اللحظة أعيش على الدين ليس عندى ما أملكه حتى ملابسى فهى بالتقسيط وقد عرفت ناسا عقلاء حسبوا لغدهم الحساب فلما أدركتهم الشيخوخة مثلا وجدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب!، أما أنا فلا أستطيع أن أحصل على ما أروى به ظمئى إلا بعرق عقلى ولا أستطيع أن أظفر بما يمسك رمقى إلا إذا أنهكت ما تبقى من قواى، وفى أول كل شهر أواجه وحشا مفترسا هو أقساط الديون التى لا تريد أن تنتهى!، تمنيت لو كنت فلاحا أملك فدانا أزرعه بنفسى، ولا أقرأ إلا الخضرة والسحاب، والشمس الساطعة، وظلام الليل، ولا أسمع من الموسيقى إلا زقزقة العصفور، وحفيف الأوراق، وأصوات الحيوانات، وأزيز الساقية!».

وكان يحب التدخين، كان يدخن فى اليوم الواحد ثمانين سيجارة «كابيتوى»، وكان يكره السجائر ذات «الفلتر» لأنها حائل غير طبيعى بين طعمها ومزاجه.

وقد عرف كامل الشناوى تبذير المال منذ الصغر فوالدته كانت تدلله بقروش إضافية فوق مصروفه اليومى فقط ليبقى فى البيت بعيدا عن سخرية أولاد الجيران من بدانته وكانت تطيب خاطره بقروش أخرى حتى يشعر باعزازها له أكثر من أشقائه الرياضيين الأصحاء.

وكان كامل الشناوى قد كتب مقالة بعنوان «الفقر الذكى والثراء الغبى» فاتهمه الأغنياء بأنه يثير عليهم الفقراء واتهمه الفقراء بأنه يحاول تخديرهم بكلام لا يسمن ولا يغنى من جوع، وكان موقف طه حسين من مقاله .. أن رد عليه بكلمة لاذعة اختار لها عنوان «جنة الشوك» يقول فيها: «قال الطالب لأستاذه الشيخ: ألم تقرأ ما كتبه الأستاذ كامل الشناوى فى جريدة الجمهورية أمس، وأنبأنا بأن يده لا تمسك المال إلا كما تمسك الماء الغرابيل»؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو أكثر قراءة القرآن لصد عن ذلك صدودا، ولأنفق حين يحسن الانفاق، واقتصد حين يجب الاقتصاد قال الفتى لأستاذه الشيخ: وماذاك؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه: وأنت أيضا لا تقرأ القرآن ألم تسمع قول الله عز وجل: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» وقوله عز وجل قبل هذه الآية: «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا».

قال الفتى لأستاذه الشيخ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لقد هممت أن أذهب مذهب الأستاذ كامل الشناوى.

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إياك أن تفعل فإن الله عز وجل قد وصف الذين أخلصوا قلوبهم له فقال فى بعض وصفهم «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» فاحرص جهدك على أن تكون من هؤلاء.

ثم كتب الدكتور طه حسين على هامش كلمته «هذه العبارة لا تنشر وإنما تعرض على كامل الشناوى»..

لكن كامل نشرها فى يومياته وكتب يقول:

«لقد أمسك بى الدكتور طه ورمانى فى جنة الشوك»!

وكل ما قاله الدكتور طه لا يخضع للجدل، فهو من صميم القرآن الكريم الذى أحفظه وأومن به، وأعترف بأنى أفهم بمنطق العقل، مدلول ما ورد فى كتاب الله عن التبذير والمبذرين .. ولكن منطق العقل يتعارض أحيانا مع منطق السلوك!.

ولقد قادنى سلوكى بمنطقى الخاص إلى أن أبذر فى إنفاق المال وهو منطق يقوم على أن التبذير الذى يجعلنى من الشياطين، ليس هو التبذير فى المال بالانفاق، ولكن التبذير فى العمر بالحرمان من المتع الحلال والحرمان يقتضى التقتير فى الإنفاق، وهكذا يصبح لرصيدى الحياة وهو شر أنواع التبذير والتبديد!

كان هذا منطق سلوكى فى فهم التبذير وهو منطق يتعارض مع منطق العقل أن كان ذنبا فانا التلميذ الفتى لم أقع فيه وحدى ولكن وقع فيه أيضا الأستاذ الشيخ!

ألا فليقل لى أستاذنا وشيخنا طه حسين ماذا جمع من المال؟ وماذا اقتنى غير البيت الذى يسكنه الآن، وكان إلى سنوات قليلة مضت يستأجر السكن وينفق عرق جبينه على الديون!

ماذا جمع طه حسين؟ ماذا جمع الرجل الذى ملأ الدنيا، وشغل العالم وربح مئات الألوف من الجنيهات!

وليسمح الدكتور طه أن أستعير أسلوبه فى «جنة الشوك» وأختم به كلمتى على هذا النحو:

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ: أليست هذه حقيقة .. حقيقة تؤلمك.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إنها لا تؤلمنى.. إنها تشرفنى!

وكامل الشناوى كان «مبذرا أمثل» رغم أنه لم يكن «ثريا أمثل» وكان المال فى جيبه مسافرا «ترانزيت» يأتى سريعا ويذهب سريعا، ولم يعرف فى حياته فضيلة الادخار والجنيه الأبيض أكثر فائدة اليوم وألزم من اليوم الأسود، ولم يجد منفذا للمال إلا ولجأ إليه يقترض منه وتراكمت ديونه لدور الصحف التى عمل بها وعندما ذهب الورثة إلى خزانته فى بنك مصر، وفتحوها، لم يجدوا مليما أبيض.

ويروى بعض معاصريه أن كامل الشناوى قد عرف ليالى الكباريهات وهو شاب ولكنه لم يدخل الكباريه بعد الثورة وأصبح مقلا فى شرابه، وكان يقول: أن الظروف السياسية تلعب دورها الهام فى تغيير العادات والتقاليد وملامح الحياة وكان يحتفظ فى ذاكرته بالعديد من قصص الغرام التى عاشها جيله من الأدباء والصحفيين والفنانين ورجال السياسة فقد كان قلبه وقلوبهم مفتوحة على الحب والصفاء والصداقة الحقيقية التى تصمد للزوابع والخلاف!..

وكانت ذاكرته كأنها قائمة تضم أسماء العديد من الفنانات الشهيرات ويعرف أسماءهن الحقيقية عندما كن غانيات أو راقصات متواضعات.

وعندما كان يواجه الخطأ من أصدقائه يقول: «اغفر دائما حتى لأعدائك فليس هناك ما يضايقهم أكثر من ذلك»..

من هنا ظل كامل الشناوى صديقا لكل الفنانين على اختلافهم وكان وهو الفنان الفريد المواهب والرقة والمرح يشعر وسط سهراته مع الفنانين بالصداقة الحقيقية والألفة والمرح، وكان يقول أن ولادة فنان لا تقل فى الأهمية عن ظهور القادة والزعماء والمجددين وكما يتمنى لو أنه ملحن يشهد

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان ـ ص ١٥٧.

ولادة المواهب والألحان وكان يتمنى لو كان ثائرا مجددا مثل جمال الدين الأفغانى وكان دائما يردد عبارته التى خاطب فيها الفلاح المصرى «إنى أعجب لك كيف تشق الأرض بفأسك، ولا تشق بهذا الفأس قلوب ظالميك».

ولم أعرف كامل الشناوى المقامر، ولكن سلوكه فى حياته ومع نفسه وحبه الطائش كان مقامرة كبرى ومما عرفته أن كامل الشناوى كان فى الماضى مقامرا كبيرا لا يتوقف عن اللعب مهما كانت خسارته ويقال أنه أفلس ذات ليلة ولعب على سيارة «بنتلى» فاخرة كان قد اشتراها منذ أيام وخسرها وعاد إلى منزله على الأقدام، أنه اقترض ألف جنيه لقضاء أجازة صيف بالاسكندرية وعاد إلى القاهرة صباح الوم التالى بعد أن خسر كل القرض على مائدة القمار.

وحال كامل الشناوى مع المال، كان حاله مع أفكاره الذكية وآرائه اللماحة المبددة فكان يتكلم أكثر مما يكتب المهم عنده الفكرة وليس صاحب الفكرة المهم أن تصل الفكرة وليس أن يتبناها وكان يلقى بأفكاره فى سهراته ليقتات عليها غيره من الأدباء والصحفيين والكتاب.

كان يقول: «يظل الانسان عاقلا إلى أن ينشر كتابا».

وقال: «لن يصل أحد إلى الكمال من أبناء الجيل الجديد ولن يقترب من الكمال إلا إذا بدأ يصبح عنده شئ يعطيه للآخرين».

وكانت حياته مجموعة من المواهب ومجموعة من التناقضات تماما كما كانت مجالسه، وفى مجلسه الحاشد دائما كان هناك خليط لا يجمعه ولا ينسق بينه سواء «بورجوازيون» جاءوا يستمتعون بحديثه الجذاب يستروحون فيه نسمات الماضى القريب، وثوريون جاءوا يعرفون منه الأحداث الوطنية المتلاطمة التى عاشها سياسيا وصحفيا، والتى لم تزعزع حبه أو إيمانه بهذا البلد وأدباء يجلسون حوله يروى لهم الشعر ويحول

النصوص القديمة فى مسامعهم إلى صور ساخرة متدفقة بالحياة وفيهم أيضا فنانون بوهيميون أو ضائعون لا يجدون من يفهم نزواتهم ومن يحبهم ويغفر لهم غيره، ومجاذيب من أبناء الله يوقظون حبه الصوفى وعطفه العميق على مأساة الانسان وكان ما يبعثه من حيوية وتدفق فى مجالسه كشاعر جذل وراوية عذب ومحدث على ثقافة وعلم وتجارب وذكريات يجعل الليل مهما طال معه قصيرا.

ومن الظواهر المشهودة فى الأدب المصرى، أن الشاعر أو الأديب الذى يضحك كثيرا فى حياته، يبكى كثيرا حينما يخلو إلى نفسه ويمسك بقلمه.

هكذا كان شاعر النيل حافظ إبراهيم[1].

كان من أظرف ظرفاء عصره، وكانت له نكات مشهوره ومع ذلك فانه عندما ترجم عن أدب الغرب اختار «البؤساء» لفيكتور هوجو وعندما كتب نثرا «ليالى سطيح» كانت حروفها دموعا وألما وشجنا وعندما نظم كان شعره عذابا وشكوى وأنينا...

وهكذا كان الشيخ عبد العزيز البشرى وعبد الحميد الديب ومحمود غنيم. وأحمد رامى إذا حدثك ملأ الكون من حوله رقه وجمالا وظرفا، وإذا نظم فأغنياته لوعة وحرمان..

وعلى غرارهم كان كامل الشناوى الذى طالما ملأ الليالى طربا، وبهجة وإيناسا، كان إذا خلا الى ذاته التقت به الأحزان والشوك واليأس، وهو إذ يتلفت حوله يذهله هذا الشعور بوحدته فى الحياة حتى بين ذويه وأهله:

أينقضى العمر بين أهلى ... وأشتكى لوعة الغريب

ويرتوى الورد من دموعى ... ليصبح الشوك من نصيبى

(١) راجع مقال صالح جودت عن كامل الشناوى/ الهلال/ ١٩٦٦.

وعندما داهمه المرض تنازعه نداء الموت والحياة.. وعاد إلى الحياة تطحنه دورة الزمان وخشيته من الله ويوم الحساب:

آه من دورة الزمـــان دهتنى ورمتنى فى غمرة النسيان
قـــد تخلت عناية الله عنى وتخلت عناية الشيطان
ضاق بى معبدى وضاقت حانى لا صلاتى تجدى.. ولا ألحانى

هكذا كان الناس يتهافتون على مجال كامل الشناوى ويسعدون وينهلون من بحر عطائه وحديثه وشعره وظرفه أما هو فكان حاله مع نفسه مختلفا..

كتب يقول: «كثيرا ما أسال نفسى: لماذا أنا شقى؟ فيم هذا الألم الصامت العميق؟ فيم هذا الحذر أن أحزن حتى لا أتألم.. والحذر من الفرح حتى لا أحزن، فإن الحزن فى حياتى يتعقب الليل والنهار».

«مامن ابتسامة ارتسمت على شفتى إلا دفعت ثمنها دمعا وأنينا، وما من أمل مشرق فى خاطرى إلا أعقبه أسى يضنينى».

وكان قاسيا بعض الشئ مع نفسه ومع الآخرين خاصة بعد المرض الذى ألم به فى عام ١٩٦٤ كان يرى كل شئ حوله يتقلص واشياء كثيرة فى داخله تخمد أو تتهاوى وكل شئ يذهب ولا شئ يجئ.

كان يقول «الناس جميعا يتمنون أن تطول أعمارهم هذه هى القاعدة [illegible] تشذ عنها بعض المفكرين والفلاسفة وهواة الانتحار، ولست والحمد لله واحدا من هؤلاء ومع ذلك فإنى كثيرا ما أتساءل: هل طول العمر نعمة أم هو عقوبة؟».

وسألته إحدى صديقاته: ألا يساورك الخوف من الموت؟

opeikan.com

وأجابها بقوله: «ما دمت حيا فلن أحس بالموت حتى أخافه، وإذا مت فإنى سأصبح عاجزا عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة إن الموت ليسن مشكلة، الحياة هى المشكلة».

وإيمان كامل الشناوى بالله كان لا يعادله إلا النفور من الشرك به وكانت ذروة إيمانه تتجلى فى تأكيده على حقه فى مغفرة الله.. أليس «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» كما يقول رسول الله ﷺ.

وكان يقول: «إذا جاء يوم الحساب فلن يحاسبونى قط على سيئاتى لأن الحسنات يذهبن السيئات كما يقول الله فى قرآنه الكريم».

وعندما غاب عن الوعى عام ١٩٦٤ كتب بعد عودته إلى وعيه يقول:

أمضيت بضع ساعات فى عالم اللاوعى، ذهبت إلى الجنة وعشت فى قصورها المشرفة على نهر الكوثر، وكانت بها نافذة تطل على طاقة جهنم..

ورأيت هناك عددا كبيرا من المفكرين والشعراء والفنانين، وكل من ساهم فى تعمير الدنيا وتجميلها... واكتشفت أن الطريق إلى الآخرة ليس فيه حساب، ولا عذاب، ولا حواجز جمركية ولا جوازات سفر.

ثم كتب وهو يستشرف النهاية:

«أنا لا أخشى آخرتى.. لأننى أتصورها أكثر جمالا وفنا وخيرا وحقا من الدنيا لقد كنت فى شبابى أتهيب لقاء الله لأنه لم يكن عندى من مؤهلات اللقاء ما يشجعنى على أن ألقاه. كان إيمانى شعورا فقط، وقد أصبحت بحمد الله جديرا بأن ألقى ربى فى كل لحظة فأنا أؤمن به بفهم وأفهمه بإيمان.

«أنا ابن هذه الدنيا التى خلقها الله ولم أغمض عنها عينى لأنى أدركت عظمة هذا العمل الفنى الإلهى فإذا اختارنى لآخرته فسأكون جديرا بهذه الآخرة بعد أن دخلت تجربة الدنيا ويالها من تجربة[1]!».

(١) كامل الشناوى/ ساعات.

أنشودة البجعة

وفى ٧ ديسمبر ١٩٦٤ احتفل بعيد ميلاده السادس والخمسين وكان أثناء احتفال الأصدقاء به شاردا حزينا، وكأنه يحس بدنو النهاية وبقرب انطفاء شمعة عمره الحزين.

وقد قيل أن البجعة عندما تحس باقتراب أجلها ترسل أعذب أناشيدها قبل الوداع وفى لحظ حزن عميق كتب كامل الشناوى بعض الخواطر فى عيد ميلاده خطها بقلم مداده اليأس والحيرة والأسى، وكأنه يودع فيها الحياة، فقال:

«صحوت على صوت رقيق يهنئنى بعيد ميلادى إن كلمات التهنئة والعيد والفرح أصبحت غريبة على أذنى فأنا فى عذاب دائم من أوهامى وظنونى تمر بى الأيام فلا أدرى أأبكى عليها أم أبكى منها إن عبء الكهولة يرهقنى وشبح الشيخوخة يحيفنى، ومع ذلك أريد أن أحيا، وأريد حياتى أن تكون إلى أمام وليس أمامنا إلا الموت».

«لقد كسبت من الأيام تجارب ومعلومات وعشت فى أعظم حقبة فى تاريخ الإنسانية فقد عاصرت اختراع الراديو والسينما والتليفون والتليفزيون وتفجر الذرة».

«ولقد أخذت من الزمن كثيرا، ولكن ما أعطيته أكثر.. فقد أعطيته كل صحتى، وكل أحلامى».

«خذوا تجاربى، وثوبى، ومأواى، وأعيدوا لى طفولتى بلا تجارب ولا ثوب، ولا مأوى».

«ولقد أحنت السنون ظهرى، وأنى أفضل أن أكون هرما عاليا عاريا، على أن أكون صحراء تغطيها الرمال والأعشاب».

ألا تزال فى العمر بقية؟

أكثيرة هى ياترى؟

«لقد لهثت وراء الأيام الذاهبة، فمن أين لى الأنفاس التى ألهث بها وراء ما تبقى لى من الأيام؟!

وتقترب ساعة الوداع..

كان أصدقاؤه يحتفلون بعيد ميلاده كعادتهم السنوية فى منزل محمد حسنين هيكل، وكان كامل ينتظر هذا الحفل ويتألق فيه ويبدع وأدار الأصدقاء جهاز التسجيل بأغنية لصباح تهنئ فيها كامل الشناوى بعيد ميلاده «سنة حلوة ياحبيبى» وأطفأوا الشموع ثم أضاءوا النور فإذا بكامل يبكى.

كان يدرك أن هذه السنة لن تكون حلوة ولذلك بكى.. ويقترب موعد حفل عيد ميلاده السابع والخمسين بحسب يوم مولده عام ١٩٠٨.

ويعود بعض أصدقائه من الخارج خصيصا ليشهدوا الحفل معه ولكنه خدعهم ودخل المستشفى..

وعندما قالت له الممرضة: سيتم شفاؤك هذا الأسبوع.

أشار بأصبعه: أبدا.

وقالت له نهلة القدسى (زوجة محمد عبد الوهاب):

- عندى لك سهرة لطيفة بعد ما تخرج.

قال: لا.. هذه المرة سيطول الرقاد.

* * *

وأثناء غفوته الطويلة فى المستشفى كان يفتح عينيه بين الفينة والأخرى، وشفتاه تتمتم بصوت هامس فيه الكثير من الأسى واللوعة:

آه من نومى ومن صحوى	ومن ساعة تعلن أو تخفى أسايا
آه منها.. أنا لم أدرك مداها	آه منى.. هى لم تدرك مدايا
حطمتنى مثلما حطمتها	فهى منى.. وأنا منها.. شظايا !

وأغمض الشاعر العاشق المحروم عينيه، وودع الحياة فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ ليترك لنا ذوب قلبه فى كتاباته الشعرية والنثرية تروى لنا حكاية مع الحب والليل والشك والحرمان وقصة شاعر حساس أحب بصدق ولكنه اكتشف بعد رحيل العمر أنه كان يجرى وراء سراب خادع!!.

opeikan.com